الرحلة العلمية بين بجاية وحواضر الغرب الإسلامي

(ق 7-9هـ/ 13-15م)

أ. بريكة مسعود

جامعة محمد لمين دباغين-سطيف2-

ملخص:

المتعارف عليه في تاريخ العلوم والأفكار أن المعرفة العلمية لا تعترف بالحدود الجغرافية ولا محدودية المجال، ولعل ذلك نتوسمه بشكل جلي في انتقال الأفكار والعلم عبر دار الإسلام في العصر الوسيطّ، ومما شجع ذلك الحراك عبر حواضره ما ميز التربية والتعليم في المنظومة العلمية أنذاك، والتي اعتمدت على عنصر أساسي ألا وهو الرحلة العلمية، وهي ذلك الحراك الذي تم بين طلبة العلم والعلماء في حواضر عالم الإسلام الوسيط، وقد كانت لمدينة بجاية في الفترة الحفصية من القرن 7-9هـ/ 13-15م تواصلا علميا كبيرا مع حواضر الغرب الإسلامي كتونس وفاس وغرناطة، من خلال الرحلات العلمية المتبادلة بينها، وقد كان لطلبة بجاية وفقهائها أثرا في المناطق التي حطوا بها، فتصدو للتدريس والفتوى والقضاء وغيرها من الوظائف، فإلى أي مدى أثرت المدرسة العلمية في نظيراتها؟ وهل تأثرت بها؟ وماهي ثمار ذلك التلاقح العلمي؟

Abstract

It is known in the history of science and ideas that scientific knowledge does not recognize geographical boundaries nor difficulties of places. Perhaps, that is clearly felt in the transmission of ideas and science across Dar al-Islam in the Middle Ages. And what distinguished education in the scientific system at that time was one of the reasons that encouraged mobility in its capitals. It was based on one essential element, namely the scientific trip, which is that movement between the students and scholars in the capitals of the world of the middle Islam. The city of Bougie had a big scientific connection in the Hafsid period of 7-9H / 13-15AD with the

capitals of the Islamic West such as: Tunisia, Fez, Granada, through mutual scientific trips. And there has been an impact for the students and scholars of Bougie on the areas where they landed. They combated teaching, fatwa, judiciary and other jobs. So, to what extent has the scientific school affected its counterparts? Was it affected by them? And what are the fruits of that scientific cross-fertilization?

المتعارف عليه في تاريخ العلوم والأفكار أن المعرفة العلمية لا تعترف بالحدود الجغرافية ولا انسداد الأفاق، تنتقل عبر قنوات وطرق متعددة، لأنها تأبى الانكماش داخل الأطر الضيقة، شجع ذلك الحراك عبر حواضر العالم الإسلامي الوسيط ما ميز التربية والتعليم عند المسلمين باعتمادهما على عنصر أساسي في سبيل تلقين المعرفة والحصول عليها ألا وهو الرحلة العلمية[1]، وهي ذلك الحراك الذي تم بين طلبة العلم والعلماء في حواضر عالم الإسلام الوسيط، وثّقت باعتقادي الصلات الثقافية وكسّرت كل الحواجز النفسية بين حواضره.

[1]- ذهب البعض لتسمية التواصل المتبادل بين ثقافات مختلفة عقديا ومذهبيا بالمثاقفة (acculturation) الذي يؤدي بالضرورة للتأثر والتأثير في حقول معرفية مختلفة، ومن المعلوم أن المصطلح استمد من خلال احتكاكه بعلمي الأنسنة(l'anthropologie) وعلم الاجتماع (la sociologie)، ورغم تعدد مفهوم المثاقفة إلا أن الإجماع يقع على أنها ذلك التلاقح المستمر بين مجموعات معينة قد تختلف في ثقافتها وتفكيرها مما ينتج عنه تشكل أنماط ثقافية وذهنية جديدة، خاصة وأنها تقوم على احترام رأي الأخر والتسامح الفكري وترفض فكرة الإقصاء والإلغاء، تهدف إلى تلقي المعرفة وتفعيل الحوار بين الثقافات والزيادة في الفهم والبحث عن المادة المعرفية عند الأخر لاستثمارها أو تنقيح الأفكار المكتسبة قبلا، وهذا يستدعي التواصل ثم التفاعل مع الأخر، لفهم الموضوع بشكل جلي يمكن الرجوع إلى: إيكه هولتكرانس : قاموس مصطلحات الأثنولوجياوالفلكلور، ترجمة محمد الجوهري وحسن الشامي، دار المعارف.

لم يحد الوسط العلمي للمغرب الإسلامي وحواضره عن ذلك المنحى فعرف مجاله تواصلا حضاريا مع جيرانه، وكانت مدينة بجاية محط الأنظار توافدت عليها النخب من كل حدب كما احتك طلبتها وعلماؤها بالآخرين و ارتحلوا في الأقطار تلهفا للمعرفة، لذلك وددت طرح إشكالية محورية للموضوع تمثلت في: إلى أي مدى أسهمت الرحلة العلمية من وإلى بجاية في بلورة المدرسة المعرفية البجائية خلال الفترة الحفصية؟ وهل استطاعت بجاية بفضل تواصلها مع حواضر المعرفة في الغرب الإسلامي[1] في إنتاج ونقل المعرفة العلمية عبر نخبها؟ أم بقيت حبيسة تأثير الوافد؟ و ما هي ثمار تواصلها مع تلك الحواضر؟

الرحلة لغة هي الارتحال أي التنقل، وتقول العرب رحل الرجل أي سار[2] فهي جزء من الضرب في الأرض، تعددت أنواعها في العصر الوسيط، تأتي في المقدمة الرحلة الدينية لأنها ارتبطت بركن من أركان الإسلام ألا وهو الحج وزيارة البقاع المقدسة[3]، إلا أن تلك الزيارة الدينية كثيرا ما كانت لها انعكاسات ثقافية وأدوارا

---

[1]- اقتصرت فقط على الغرب الإسلامي لمعرفة تأثر وتأثير المجال القريب من بجاية الحاضرة السياسية والعلمية الثانية للحفصيين.

[2]- ابن منظور: لسان العرب، تح، عبد الله الكبير وأخرين، دار المعارف، القاهرة، دت، مادة رحل، ج11، ص 276.

[3]- قد تتفق الرحلة مع مدلول الهجرة الذي ذاع في العصر الحديث، لكن علماء الاجتماع يميزون بين الهجرة المؤقتة والهجرة الدائمة التي يستقر فيه المهاجر بصفة نهائية، أما غير الدائمة فهي وفود أو ارتحال لمدة ثم العودة إلى الوطن الأم، خاصة وأن الهجرة تعرف بأنها انتقال الأفراد أو الجماعات بصفة دائمة أو مؤقتة إلى أماكن تتوفر فيها شروطا أفضل للحياة، يراجع في الأمر : عبد القادر القصير : الهجرة من

علمية، فركب الحج كان يضم كل الأطياف على اختلاف تراتيبتهم الاجتماعية وتركيبتهم الإثنية وأصولهم الجغرافية منهم الفقهاء ورجال العلم[1]، ثم تأتي الرحلة العلمية التي دوّن فيها علماء الإسلام أبوابا، وألّفوا فصولا في فضلها وحدّثوا بمزايا ملاقاة المشيخة[2]، كالاستزادة في التفقه والاحتكاك بالعلماء والتأدب بآدابهم و التأسي بأخلاقهم ونيل بركتهم والحصول على إجازاتهم، عدّها ابن خلدون ضرورة لاكتساب الفوائد الجمة بلقاء شيوخ العلم[3]، وقد لاحظت ذلك الاهتمام الكبير من طلبة المغرب الأوسط بحرصهم على السفر في طلب المعرفة محاولة منهم لربط علاقات ثقافية مع الوسط العلمي لعالم الإسلام الوسيط وتفتيق قدراتهم العلمية، ومما شجع طلبة المغرب الأوسط عموما والبجائيين بالخصوص للانتقال إلى مراكز الثقافة هو تقصيرهم في التأليف وقلة التدوين الذي حال بينهم وبين كثرة تداول الكتب المدرسة في فنون العلم المتنوعة، فهدفت الرحلة في هذا الباب إلى التكوين المتميز للقدرة على التصنيف، عن طريق الاحتكاك بصفوة المشيخة المغربية والمشرقية التي دأبت على

الريف إلى المدينة، دراسة ميدانية إجتماعية عن الهجرة من الريف إلى المدينة في المغرب، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، ص 105-106.

(1)- علما أن الرحلة للحج تراجعت خلال القرنين 8و9هـ/ 14و15م لظهور نازلة تفضل الجهاد على الحج، يراجع في الموضوع ما كتبه محمد أبو الأجفان في تحقيق رحلة القلصادي الشركة التونسية للتوزيع، تونس، 1978، ص66.

(2)- عدها بعض الدارسين هجرة مؤقتة ترتبط بسنوات الدراسة والتحصيل العلمي، أنظر في الموضوع : عبد القادر القصير : المرجع السابق، ص 118.

(3)- في قيمتها وأهمية لقاء المشيخة قال " ...إن الرحلة في طلب العلم ولقاء المشيخة مزيدا في العلم والفوائد..."" أنظر : المقدمة، تح : خليل شحادة، دار الفكر، ط2، بيروت، 1988، ص745.

الكتابة، والحرص على ملاقاة الشيوخ الكبار والإستكثار من الرواية عن مبرزيهم على حد تعبير أحد الباحثين[1].

كما ذهب البعض إلى القدح في العلوم التي يحملها الفقهاء الذين بقوا رهينة التكوين العلمي المحلي، لذلك حرص طلبة المغرب الأوسط على السفر للنهل من علم الحواضر المنتشرة في بلاد الإسلام، شجعهم ترحيب شيوخ العلم والمدرسين للطلبة وعدم تمييزهم بين المحلي والوافد، فابن قنفذ القسنطيني (ت810هـ/ 1408م) سافر إلى المغرب الأقصى للتتلمذ على مشايخه، فلازمهم مدة وجلس ينهل من علومهم حريصا على اكتساب المعرفة من مصادرها[2]، وقد سار طلبة بجاية على هذا المنوال فارتحلوا بشكل كبير منذ القرن 6هـ/ 12م، كما أن الرغبة التي حازها الطلبة البجائيون في قلوبهم وعقولهم عن العلم وضرورته أسهمت في خروجهم إلى الحواضر البعيدة للبحث عن المعرفة، يحدثنا ابن قنفذ عن قصة خروج أبي مدين شعيب (ت 594 هـ/ 1236م) لتلقي العلم، بأنه تراءى له في المنام من يحثه على الخروج من بجاية إلى حواضر أخرى للاستزادة من المعرفة فلم يتوان في السفر إلى فاس[3]، بعضهم تنقّل

---

[1]- حسن الواركلي "صفحات من تاريخ الثقافة والتعليم في الغرب الإسلامي المشيخة العلمية في المغرب والأندلس خلال القرن الثامن الهجري"، مجلة رسالة الخليج العربي، العدد40، السنة12، الرياض، المملكة السعودية، 1992، ص 113.

[2]- دام مكوثه بالمغرب الأقصى 18 سنة يتعلم يلاقي الشيوخ، تولى القضاء في دكالة، ينظر في الأمر : مقدمة تحقيق : شرف الطالب في أسنى المطالب، تح: عبد العزيز صغير دخان،مكتبة الرصد،السعودية، 2003، ص 23.

[3]- لازم بفاس حلقات العلماء ومجالستهم والسماع منهم وسؤالهم، أنظر في ذلك : أنس الفقير وعز الحقير، تح : "أبي سهل نجاح عوض صيام، دار المقطم، القاهرة، 2002، ص46.

بهدف تجاري للكسب والاسترزاق وإحراز سبل الرزق والعيش هروبا من الفاقة والفقر في البلد الأصلي، وهي ما يصطلح عليه بالرحلة التجارية، وقد عدّد الفقهاء والمنظّرون فوائد الرحلة العلمية وقد اختصرتها في :

- معرفة طرق ومناهج التدريس وكيفية الوصول إلى إطلاق الأحكام بناءا على قواعد وأسس علمية ممنهجة.

- إدراك الأخطاء التي يرتكبها الطالب وإعادة قراءة قواعد التفكير والتحليل على أسس موضوعية سليمة توصل إلى نتائج علمية صائبة.

- الاستزادة في فهم وإدراك وتعميق المعارف في العلوم العقلية والنقلية.

- الوصول إلى مرتبة التأليف بالبحث والمقاربة بين الكتب المذهبية والفقهية ومحاولة استنباط قواعد جديدة وإكمال بعضها.

- البعض نال من ورائها التميز والتفرد والتمكن فذاع صيتهم بين أقرانهم فقرّبتهم السلطة وأدرجتهم في صفها، فكانوا أداتها الفعالة من خلال الوظائف الدينية والإدارية التي تقلدوها.

- حرص طلبة المغرب الأوسط من خلال الرحلة على ربط علاقات علمية وثقافية مع إخوانهم في حواضر العلم مشرقا ومغربا[1].

- تنمية المعارف والأخلاق بالتعلم والتعليم والإلقاء والتلقين وهو من أفضل طرق التعلم وأوثقها رسوخا، كما أن تعدد المشيخة يزيد العلم رسوخا واستحكاما.

---

[1] ***A**ttallah Dhina, Le royaume abdelouadide a l'époque d'AbouHamou Moussa 1 er et d'Abou*
Tachfin1 er, Alger, Office des publications universitaires, p. 220-234.

- أضاف البعض أمورا اجتماعية وأنتربولوجية هدف إليها الطلبة من خلال رحلاتهم كالتعرف على ثقافات الشعوب وعاداتها وتقاليدها[1]، وجمع البعض بين الأسباب السالفة الذكر وأخرى[2].

لم يقتصر الطلبة البجائيون في رحلاتهم العلمية على بلد واحد بل امتدوا في الأقطار التي حازت الشهرة في العلم واستقطبت العلماء وعرفت بنشاطها المعرفي، ففي بلاد المشرق أخذت مصر وبلاد الحجاز النصيب الأكبر ثم بلاد الشام والقليل دخل اليمن، أما بلاد المغرب فاستقطبت تونس القدر الأكبر فالمغرب الأقصى وبلاد الأندلس، بعضهم أطال في رحلته كأبي مدين شعيب الذي دامت رحلته أكثر من عقدين يبحث فيها عن العلماء ويدرُس عليهم ويسمع خطبهم ويجتمع بهم[3]، علما أن المتصوفة يركّزون على ضرورة اختيار الرفقة في الرحلة وطبيعة الشيخ الذي تتلقى

---

[1]- وهو ما ذهب إليه : لخضر عبدلي : الحياة الثقافية بالمغرب الأوسط خلال العهد الزياني، رسالة دكتوراة في التاريخ الوسيط، قسم التاريخ، جامعة تلمسان،2005، ص100.

لكنني لم أعثر فيما قرأته عن الطلبة المرتحلين على دليلا واحدا ينحى هذا المنحى، لأن الرحلة العلمية ارتبطت بالنوايا التي نعتقد أنها كانت لأجل وجوب طلب العلم، أما التعرف على عادات الشعوب والأمم فهي مما يحصله الطالب في رحلته وهي مكمل للرحلة العلمية، تدخل في باب تجارب الحياة وليس مقصدا في حد ذاته، ولعلها من أهداف الرحالة والجغرافيين وليس طلبة العلم.

[2]- عواطف محمد يوسف نواب : الرحلات المغربية والأندلسية، مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض، 1996، ص71 وما بعدها.

[3]- علما أن الكثير من الطلبة والعلماء سافروا لتلقي المعرفة وتغربوا وماتوا هناك دون العودة إلى أوطانهم، عبر عن ذلك محمد الحجوي فقال "وكم من عالم طالت غربته، وبعدت بينه وبين وطنه المسافة فظل غريبا حتى لقي ربه"، أنظره في : "الأهداف الدينية والعلمية لرحلة علماء الغرب الإسلامي إلى المشرق"، ص213.

عليه العلم، فيرون أن الشيخ كلما زاد تخلقا زاد تصوفا[1]، عاد أبو مدين إلى بجاية ينشر ما تعلمه وأدركه، فتقاطر عليه الطلبة من مدن المغرب الأوسط وخارجه على حد تعبير أحد الباحثين "أقبل عليه طلبة العلم من كل صوب وحدب"[2]، احتضنتهم بجاية واستقبلتهم فكثروا وملأوا الآفاق بعلمهم وآدابهم.

تونس تستقطب الكم الأكبر:

يبدو أن العامل الجغرافي المتمثل في القرب، كما أن الطيف السياسي الواحد بين بجاية وتونس، وتشجيع السلطة الحفصية لطلبة العلم ومحاولاتها الحثيثة لاستقطاب البجائيين سواءً نخبا عالمة أو طلبة، عوامل سهلت التواصل مع عاصمة الحفصيين، إضافة لبروز ثلة من العلماء المتضلعين بالحاضرة في أصناف العلوم الشرعية، زيادة على أنها طريق حيوي واستراتيجي للذاهبين نحو المشرق والعائدين منه، حيث استقر الكثير منهم بالحاضرة مما جعلها تبرز كمركز علمي استهوى الطلبة، فقد ارتحل أبو العباس الغبريني (ت 704 هـ/ 1304م) كما يذكر في برنامجه نحو تونس ومكث بها مدة يدرُس على مشيختها، فسمع بالمذاكرة عن الشيخين أبي العباس ابن عجلان (ت678هـ/ 1271م) وأبي محمد عبد المجيد الصدفي (ت 684هـ/ 1285م) حتى عاد لبجاية وانتفع بعلمهما أيما انتفاع[3]، وسمع بتونس وببجاية عن الشيخ أبو

---

[1]- المقدسي : صفوة التصوف، تح : عادة المقدم، دار المنتخب العربي لدراسات والنشر، ط1، بيروت، 1995، ص91.

[2]- يحيي بوعزيز : مدينة تلمسان عاصمة المغرب الأوسط، دار الغرب للنشر والتوزيع، ط2، 2003، ص81.

[3]- عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية، تح: عادل نويهض، منشورات دار الأفاق الجديدة، بيروت، ط2، 1979، ص 99-356-357.

القاسم بن زيتون (ت691هـ/ 1292م) الذي نزل بها مرتين[1]، كما أنني وجدت بعض الفقهاء البجائيين رغم درايتهم العلمية إلا أنهم انتقلوا لعاصمة الحفصيين للسماع على بعض مشيختها، فقد ارتحل المفتي أبو يوسف الزواوي (ق 7هـ / 13م) إليها وسمع من الشيخ محمد بن شعيب الهكسوري[2]، مما ينم عن حبهم وشغفهم لطلب العلم وتواضعهم في سبيل المعرفة رغم قوة علمهم وطول باعهم، أرادوا التضلع في الأحكام الفقهية على شاكلة أبي عبد الله البوسعيدي البجائي (ت 868هـ/ 1463م) الذي ارتحل للتتلمذ على أبي القاسم البرزلي[3]، والنتيجة أن العنصر البجائي سرعان ما استطاع إثبات فاعليته الإيجابية في الوسط الاجتماعي والثقافي، من خلال تصدرهم للوظائف فاحتلوا مكانة هامة في المؤسسات الوظيفية التونسية سواء الدينية أو الإدارية، فأسرة بني غبرين كان لها حظا وافرا من ذلك، فعلى سبيل الحصر عُيِّن أبو القاسم أحمد بن أحمد الغبريني (ت 772 هـ/ 1372م) الإمام والفقيه خطيبا ومفتيا بجامع الزيتونة[4]، وعين أبو مهدي عيسى الغبريني(ت 813هـ/ 1410م) قاضيا للجماعة بتونس وإمامة جامع الزيتونة لمدة عشر سنوات (803-813هـ/ 1400-1410م)، وكان صارما في أحكامه ومهابا أمام السلطة الحفصية بتونس حتى أن

---

[1]- المصدر نفسه، ص357.

[2]- الماجري : المنهاج الواضح في تحقيق كرامات أبي محمد صالح، تح : عبد السلام السعيدي، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المملكة المغربية، 2013، ج1، ص 331.

[3]- إبن مخلوف : شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، المطبعة السلفية ومكتبتها، القاهرة، 1930،ج1،ص245.

[4]- شجرة النور، ج1، ص224.

السلطانين أبو العباس أحمد ثم أبو فارس طبقا الأحكام الصادرة عنه في حق أهلهما وأقاربهما[1].

البجائيون والنضج العلمي التلمساني :

استهوت تلمسان البجائيين، فهي مجال معرفي حاضر من خلال تلك الرحلات المتبادلة بينهما حتى أن البعض اعتقد بتلاقح وتوأمة الحاضرتين، فهناك انسيابية طبيعية للرحلة بين الحاضرتين اللتين عرفتا في الفترة المدروسة تطورا فكريا بارزا، ولعل تشجيع السلاطين الزيانيين للحركة العلمية زيادة على كثرة المتخصصين في العلوم العقلية والنقلية بالعاصمة الزيانية جلب لها الطلبة من كل الأصقاع[2]، ومن خلال رصدي للمبادلات الثقافية بين الطرفين صنفت المرتحلين إليها إلى صنفين :

الصنف الأول (الطلبة المتميزين) :

الطالب البجائي	شيوخه بتلمسان	العلوم التي سمعها	المصدر
نصر الزواوي (ق9هـ / 15م)	قاسم العقباني+محمد مرزوق +العصنوني	الفقه (التركيز على مختصر ابن الحاجب)	البستان / 82-83.

[1]- للتفصيل في الموضوع ينظر: إبراهيم جدلة: المجتمع الحضري بافريقية في العهد الحفصي، منشورات جامعة قفصة، تونس،2010، ص 153.

[2]- عبد العزيز فيلالي : تلمسان في العهد الزياني، موفم للنشر والتوزيع، 2002، ج2 ص327-328.

أحمد بن موسى البجائي (ق8هـ/ 14م)	الشريف التلمساني	علوما شتى	البستان / 119.
محمد بن أحمد (ابن الطير)		الفقه	عنوان الدراية/ 379.
منصور بن علي الزواوي (ت770هـ/ 1369م)	عبد المهيمن الحضرمي+أبو العباس بن يربوع+ إسحاق بن أبي يحي الشريف	الفقه (مختصر ابن الحاجب وتسهيل ابن مالك)	كفاية المحتاج، 2/ 257.
أبو عبد الله محمد بن أبي القاسم المشدالي (ت865هـ/ 1461م)	ابن مرزوق الحفيد+ سعيد العقباني+ أبو الفضل ابن الإمام + ابن زاغو، وغيرهم	الفقه، المنطق، الطب، الهندسة، الفلسفة، أصول الدين، التفسير والحديث.	درة الحجال/ 278 .

التعليق والتحليل : هم الطلبة المجيدون لبعض المعارف العلمية والدارسون للغة العربية، علما أن الملامح العلمية لبجاية قد تغيرت بعد التجديد الذي أحدثه

ناصر الدين المشدالي-[1]، فاتجه طلبتها نحو فهم وحفظ وإدراك مختصر ابن الحاجب الذي أصبح مركزية في تدريس الفقه المالكي، فقد ارتحل نصر الزواوي[2] إلى تلمسان وهو يحفظ المختصر عن ظهر قلب، وكان يتقن اللغة العربية التي تلقاها على مشايخه ببجاية وسمع من الفقيه العصنوني علم الفرائض[3]، ولفضله وعلمه وتقواه سميت روضة باسمه بتلمسان[4]، ويبدو أن شهرة فقهاء تلمسان جابت الآفاق، مما جعل البجائيين يرتحلون إليها معترفين بالمشيخة التي قرأوا عليها، فيحدثنا الفقيه نصر الزواوي (ق 9هـ/ 15م) أنه اعتزل حلقة الشيخ قاسم العقباني على فضله وعلمه وانضم إلى درس محمد ابن مرزوق الذي وصفه بأنه "بحرا في كل علم لا ساحل له"[5]، مما يدل على حرص الطلبة على تخيّر المدرّسين والأساتذة البارزين في كل علم ليسمعوا منهم ويتفقهوا عليهم، وهو شأن أبي العباس أحمد بن موسى البجائي (ق 8هـ/ 14م) الذي سافر إلى تلمسان للقراءة على عالمها الشريف التلمساني، فأخذ منه علوما كثيرة واستفاد استفادة عظيمة وأشفى غليله من الدروس من صدر شيخه ولم

---

(1)- أنظر ترجمته في عنوان الدراية، 229-230.

(2)- لكي لا يقع اللبس بينه وبين إبراهيم المصمودي فهما شخصية واحدة، فقد كان ابن مرزوق يطلق عليه هذا الاسم، أنظر : ابن مريم : البستان في ذكر العلماء والأولياء بتلمسان، المطبعة الثعالبية، الجزائر، 1980، ص82.

(3)- وهو شارح أرجوزة التلمساني في الفرائض، وقد سمعها عنه الشيخ نصر الزواوي ببجاية، أنظر : البستان، ص82.

(4)- المصدر نفسه، ص 129.

(5)- المصدر نفسه، ص82.

يكن يعترف بغيره من المشيخة كما ذكر ابن مريم[1]، ثلة منهم ارتحلت بين عدة حواضر في الغرب الإسلامي وكانت تلمسان إحدى محطاتهم، شأن منصور بن علي الزواوي كما يبرزه الجدول فقد دخل تلمسان وقرأ على جملة من مشيختها مركّزا على علم الفقه ومبادئ العربية[2]، مبديا إعجابه بتفوق شيخ تلمسان وعالمها أبو محمد عبد المهيمن الحضرمي[3]، ومنها أكمل رحلته نحو بلاد الأندلس فدخلها سنة 753هـ/ 1352م واستقر بغرناطة متصدرا للتدريس بمدرستها المشهورة، فمحمد بن أبي القاسم المشدالي الذي دخل تلمسان سنة 840 هـ/ 1438م سمع من شيوخ كثر كما يبينه الجدول[4]، لمدة فاقت أربع سنوات بتلمسان لوحدها فتوسعت ثقافته ومداركه وتفقه في دينه وكان موسوعيا في علوم شتى، أسهم في إثارة الحلق العلمية بتلمسان ومناقشة فقهائها مما دفع بهم إلى الاجتهاد وتنقيح دروسهم وتجديد معارفهم،

---

[1]- البستان، ص119-120.

[2]- وقد صرح في ترجمته التي أملاها على لسان الدين بن الخطيب بطلب منه، أنه خرج لتلمسان يرغب قراءة علوم العربية والهندسة والحساب، ينظر في ذلك : الإحاطة في أخبار غرناطة، تح : محمد عبد الله عنان، الشركة الوطنية المصرية للطباعة والنشر، ط1، القاهرة، 1973، ج3، ص 326-328.

[3]- وشحه بترجمة قصيرة ولكنها تنم عن المقدرة والتفوق العلمي لهذه الشخصية العلمية فقال "فأول من لقيت شيخنا الذي علمت في الدنيا جلالته وإمامته وعرف في أقاصي البلاد سيادته وزعامته"، المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

[4]- سمع التفسير والحديث والفقه والأدب والمنطق والجدل والفلسفة والطب والهندسة عن الشيخ ابن مرزوق الحفيد، وقرأ الفقه وأصول الدين عن سعيد العقباني، وسمع التفسير والحديث والهندسة من أبي الفضل بن الإمام، وأخذ أصول الفقه والبيان على ابن زاغو كما عرف الحساب من أبي الحسن علي بن قاسم وآخرين كثر ينظر في ذلك : السخاوي : الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، دار الجيل، بيروت، ج5، ص183.

فقد ذكر الشيخ محمد بن مرزوق أنه لما دخل أبو محمد بن أبي القاسم المشدالي تلمسان أخذ ينازعه في بعض المسائل فأعاد مراجعتها وبعث فيه روح البحث مجُدَّدا فقال "ما عرفت العلم حتى قدم إلينا هذا الشاب، فقيل له وكيف؟ قال: لأني كنت أقول فيسلّم لي قولي، فلما جاء هذا شرع ينازعني فشرعت أتحرر وانفتحت لي أبواب المعارف"[1]، بعدها عاد لبجاية وانتصب للتدريس وانتفع به خلقا كبير من طلبة المغرب الأوسط وما جاوره[2].

الصنف الثاني : الفقهاء المتضلّعين :

يبدو من تراجمهم أن هذا الصنف لم يرتحل إلا بعد أن حاز العلوم المختلفة وأصبح له باع فيها، وأصبح شيخا في العلم، هدفهم الاستزادة في فنون العلم رغم كبر سنهم فأطلق عليهم الطلبة الكبار وهم علماء[3]، وتختلف ظروف وأسباب هجرة هذه الفئة من عالم إلى أخر، إلا أن المشترك بينها يتمثل في استفادة البلدان المرتحل إليها من علومهم وخبراتهم، فأكرمتهم ورحّبت بهم بسبب ما أضافوه من حراك في تلك الحواضر، فقد غادر أبو عمران المشدالي بجاية نحو تلمسان أيام السلطان أبي تاشفين (718-773هـ/ 1318-1371الميلادي) فقوبل بالترحيب والإكرام من السلطان

---

[1]- إبن القاضي : درة الحجال في أسماء الرجال، تح : محمد الأحمدي أبو النور، دار التراث، تونس، ط1، 1971،ص 278.

[2]- الضوء اللامع، ج5، ص183.

[3]- حسين أسكان : تاريخ التعليم بالمغرب خلال العصر الوسيط(1-9هـ/ 7-15م)، مطبعة المعارف، الرباط، 2004، ص129.

نفسه وقام عليه أيما قيام[1]، وعيّنه مدرِّسا بالمدرسة التاشفينية، في حين استفاد طلبة تلمسان من علمه فدرّسهم الحديث والفقه والأصلين والمنطق والنحو وعلوما أخرى، وهو أول من أدخل مختصر ابن الحاجب إلى تلمسان[2]، من تلامذته سعيد العقباني وأبو عبد الله الشريف وغيرهم كثر[3]، انتقل بين مدارس تلمسان ومساجدها واعظا ومربيا ومعلما، وأصبح مكوّنا أساسيا في المجتمع التلمساني وشخصية مؤثرة لا غنى عنها[4]، كما استفادت تلمسان حتى من الفقهاء الطارئين عليها لمهمات سياسية، حيث يذكر المقري أنه لما حل الشيخ محمد بن يحي الباهلي (ابن المسفر) على تلمسان رسولا من والي بجاية فتح مع طلبتها إشكاليات علمية ونقاشات كثيرة منها موضوع مشيخته وإشكالية تفسير سورة الفاتحة[5]، وذكر ابن قنفذ أن أبا عبد الله محمد البجائي دخل تلمسان وصار إماما لعلمه وأخلاقه[6].

---

[1]- تذكر المصادر أن السلطان الزياني أكرمه بمائتي دينار كما أعفاه وأصحابه من دفع غرامات تجارتهم لفضله ومكانته العلمية، المقري : نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تح : إحسان عباس، دار صادر، بيروت، نفح الطيب، 1988، ج5، ص223.

[2]- والعلامة ناصر الدين المشدالي (ت731هـ/ 1331م) وهو أول من أدخل مختصر ابن الحاجب في الفقه الى بجاية بعد عودته من رحلته العلمية إلى بلاد المشرق، ينظر الموضوع عند : ابن خلدون : المقدمة، دار الفكر للنشر والتوزيع، بيروت، 2000، ص 406.

[3]- نفح الطيب، ج5، ص250.

[4]- ابن مرزوق : المسند الصحيح في ذكر مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن، تح : ماريا خيسوسبيغيرا، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر 1981، ص131.

[5]- ذكر لهم أنه زمن شيخه ناصر الدين المشدالي كانوا يختلفون في قول فخر الدين الرازي في تفسير الفاتحة، أنظر: البستان، ص216

[6]- أنس الفقير، ص 147.

الأندلس وحنين البجائيين إلى الفردوس :

استقطبت الأندلس الطلبة والفقهاء البجائيين، ولعل الحنين إلى الفردوس المفقود[1] وتراثه العلمي للوقوف عليه والرغبة في النهل من بقاياه هي الأسباب التي جذبتهم إليه، لكن الغالب الذي تحدثنا عنه كتب التراجم هم فقهاء بجائيون تصدوا للتدريس والإقراء وحازوا وظائف دينية وإدارية ببعض الحواضر الأندلسية، أثروا الحياة العلمية بالدرس في مساجدها ومدارسها، فقد استدعى ثاني سلاطين غرناطة فقيه بجاية محمد بن إبراهيم بن محمد الأوسي (ت 715 هـ/ 1315م) الذي برع في علوم الطب والحساب والهندسة إلى عاصمة مملكته للانتفاع بعلومه وتجاربه الطبية[2]، ودخل الفقيه محمد بن يعقوب المنجلاتي (ت730هـ/ 1329م) المرية فاجتمع عليه خلق كبير من فقهائها وطلبتها ينهلون منه ويسمعون عليه فتفقهوا عليه كما جاء على لسان المترجم[3]، ولمكانتهم المعرفية وخبراتهم الوظيفية عين بعضهم في وظائف مهمة وفي مقدمتها القضاء، فقد استقضى الفقيه أبو الحكم مروان بن عمار في مدينة المرية[4]، وانتصب البعض الأخر للتدريس والإفتاء وحل القضايا العالقة بين الناس، شأن منصور بن علي الزواوي الذي دخل الأندلس سنة753هـ/ 1352م)استقر بغرناطة على ذكر ابن خطيب ولقي بها ترحابا وتجلة من أهلها وعلمائها وسلطتها متصدرا

---

[1]- بتعبير شكيب أرسلان.

[2]- الإحاطة، ج3، ص69-70.

[3]- درة الحجال، ص 101.

[4]- سمع العلم من مشيخة الاندلس كمحمد بن منعم بن الفرس وأبا القاسم بن حبيش وأبا عبد الله الله بن حميد، ينظر عنه : عنوان الدراية، ص 321.

للتدريس بالمدرسة النصرية المشهورة كما ذكرته سابقا[1]، بتعيين من صاحب المدينة، ويبدو من ترجمته أن أجره على الوظيفة كان معتبرا لقوله "بجراية نبيهة"[2] لمكانته العلمية ومقدرته في إيصال المفاهيم لطلبته، فأقرأ الفقه والتفسير في مدارسها، وكانت تعرض عليه المسائل والفتاوى فيفتي الناس ويفقههم في دينهم، وألقى دروسا بدار سلطان المدينة وكان ابن الخطيب من طلبته فسمع وانتفع منه كثيرا كما قال "جربته وصحبته فبلوت منه دينا ونصفة وحسن عشرة"[3].

بجاية حاضنة المعرفة وملتقى زوارها:

وجدت الرحلة العكسية أي إلى بجاية من بلدان وحواضر أخرى صانعة بذلك مفهوم الحراك العلمي الذي يتطلب التبادل المعرفي تأثرا وتأثيرا، وقد اجتمعت عوامل كثيرة جعلت الطلبة والفقهاء يحطون الرحال ببجاية، فقد أجمع الرحالة والجغرافيون على أن طبيعة البيئة البجائية الخلابة مساعدة على الإبداع، فامتداد جغرافيتها وتنوع تضاريسها من سهول وجبال ووديان، وتنوع مياهها وهواء بحرها،

---

[1]- يفهم من ترجمة ابن الخطيب لهذه الشخصية والتي لازمها لفترة بغرناطة أن حياته بالمدينة مرت بمرحلتين، مرحلة القراءة والسماع من كبار المشيخة الأندلسية آنذاك، فسمع علوم اللغة العربية من الشيخ أبو عبد الله بن الفخار الشهير بالألبيري لازمه بالقراءة حتى توفي الشيخ، وقد أجازه وأعطاه الإذن بالتدريس في حلقته، وسمع من الشيخ الشريف أبي القاسم محمد بن أحمد الحسيني مؤلفاته، ومن الكتب التي سمعها عنه تسهيل الفوائد لابن مالك ودون عليه أمورا، كما يذكر أنه روى عن الشيخ أبي البركات بن الحاج وسمع وروى عن المحدث الشيخ الفقيه أبي جعفر الطنجالي، ثم انتقل للتدريس وهي المرحلة الثانية، أنظر بالتفصيل ترجمته في : الإحاطة، ج3، ص324-328.

[2]- المصدر نفسه، ج3 ص 335.

[3]- الإحاطة، ج3، ص 335.

كلها عوامل أسهمت في الإبداع العلمي والأدبي، خاصة وأن الشعراء والأدباء يرون أن الطبيعة الخلابة سبب من أسباب تفتيق القرائح، تعطى الحرية للمخيال والشاعرية لتبوح الأنفس عن أسرارها وتفيض بمشاعرها، كما يفضلها طلبة العلم للترويح عن أنفسهم والتأمل في الملكوت فتزداد ملكاتهم اتقادا وتتفتح ذهنياتهم وتنشط ألبابهم، تلك الصورة الجميلة لطبيعة بجاية رسمها الشاعر القسنطيني ابن الفكون لما زارها فقال:

بر وبحر وموج للعيون به مسارح بان عنها الهم والنكد

حيث الهوى والهواء الطلق مجتمع حيث الغنى والمنى والعيشة الرغد[1]

أجمع الفقهاء والصوفية والرحالة على أن بجاية دار بركة والرزق فيها يتضاعف والخير فيها واسع، فأبو مدين شعيب يفضلها ويحبها دون غيرها من حواضر بلاد المغرب لأنها برأيه تعين على الرزق الحلال[2]، جل المصادر التي وصلتنا تجمع على محبة البجائيين لطلبة العلم والفقهاء والمتصوفة، فقد سهلوا لهم سبل تحصيل المعرفة والعلوم، والنصوص التي تحصلنا عليها تؤكد أنهم كانوا يحبون الغرباء من الطلبة ويقومون عليهم أيما قيام، يجلونهم ويقدرونهم ويجرون عليهم الجرايات ويصلونهم بالصدقات، وجدوا فيها على حد تعبير أحد الدارسين "متعة الإقامة وراحة العقل وطمأنينة القلب مما يتيح لهم أن يتأملوا و أن يؤلفوا"[3]، وقد تفاجئ الفقيه محمد بن عمر الهواري (ت843هـ/ 1439م) لكرم أهلها وكان كثير الثناء عليهم لشدة

---

[1]- عنوان الدراية، ص 334.

[2]- البستان، ص 113.

[3]- المهدي البوعبدلي، ص 153.

حبهم وتعلقهم بالفقراء والغرباء والقيام عليهم[1]، بعضهم شبهها بالكعبة[2]، حيث جمعت الطلاب على اختلاف عرقياتهم وجغرافيتهم فقصدوها يبتغون فردوس العلم،كما أن فقهاؤهاكانوا يتحرون الحلال في معاملاتهم التجارية مما ينم عن سمو أخلاقهم ومعرفتهم بالحدود الشرعية عقيدة وسلوكا[3]، لا يعرفون رجال السلطة لا يخالطون الأمراء على رأي الثعالبي[4]، عرفوا بتميزهم العلمي وتمرسهم الفكري كانوا قبلة للطلبة من كل الأمصار أتوهم يبتغون السماع عنهم والقراءة عليهم أو مجالستهم كعبد الرحمن الوغليسي (ت787هـ،1385م) "عمدة أهل زمانه وفريد عصره شيخ جماعة بجاية"[5]، لهذا تجمعت الكثير من النخب على اختلاف وتعدد أصولها الإثنية وتخصصاتها العلمية ببجاية من الفقهاء والفلاسفة وعلماء اللغة وشيوخ التصوف، خاصة خلال القرنين7و8هـ/ 13و14م فهما قمة الإبداع أسهمت خلالهما النخبة البجائية العالمة في إنتاج المعرفة ونقل العلوم خارج الفضاء البجائي، أضف إلى ذلك المكانة العلمية التي تبوأتها الحاضرة الثانية للحفصيين، ببروز مشيخة علمية تصدرت

---

[1]- التنبكتي : كفاية المحتاج لمعرفة من ليس في الديباج، تح : محمد مطيع، وزارة الأوقاف والشؤون لإسلامية، المملكة المغربية، 2000، ص151.

[2]- عبد العزيز قلقلية : من التراث الأدبي للمغرب العربي، معالم الكتب، القاهرة، 1979، ص 29.

[3]- وهي شهادة الفقيه محمد بن عمر الهواري (ت843هـ/ 1439م) الذي دخل بجاية واستقر بها للدراسة على أحمد بن إدريس البجائي وعبد الرحمن الوغليسي، وهو اعتراف من رحم الواقع الذي عايشه مع أهلها فوصف حالهم وموقفهم من العلم والعلماء، أنظر : البستان، ص 228.

[4]- رحلة عبد الرحمن الثعالبي، تح : محمد شايب شريف، دار ابن حزم، بيروت، ط1، 2005، ص107.

[5]- شجرة النور الزكية، ص237.

للتدريس عبر المؤسسات التعليمية المختلفة، حيث ذكر ابن مريم في معرض ترجمته لسعيد العقباني(ت811هـ/ 1408م) عند تعيينه قاضيا للجماعة ببجاية من قبل أبي عنان أن العلماء كانوا متواجدين بكثرة يومئد ببجاية[1]، وهو نفس انطباع الثعالبي الذي دخلها سنة 802هـ/ 1399م فوجد فقهائها يتصفون بالورع والتقوى يطبقون شرع الله ويقفون عند حدوده[2]، قال عنها الفقيه محمد بن عمر الهواري (ت843هـ/ 1439م) أنها بلد الورع والعلم[3]، ويذكر ابن مرزوق أنه دخل بجاية المحروسة كما سماها في ركب الحج[4] ولقي بها من الأولياء والفقهاء خلائق، دلالة على كثرتهم وسمى منهم ناصر الدين المشدالي واعترف أنها دار للعلم انتشر فيها التدين والأخلاق والفقه[5]، ورغم التحامل الذي أبداه الرحالة العبدري على حواضر المغرب الأوسط وقوله بانتفاء العلم بها إلا أنه اعترف لماضي بجاية العلمي ولتاريخها

---

[1]- البستان، ص106.

[2]- معترفا بالعلوم التي حازوها وتدينهم وخوفهم من الله، ذكر منهم عبد الرحمن الوغليسي وأحمد بن إدريس البجائي، ينظر في ذلك : رحلة الثعالبي، ص107.

[3]- إبن صعد : روضن النسرين في التعريف بالأشياخ الأربعة المتأخرين، تح :يحيي بوعزيز، منشورات *Anep*، ط1، ص 47

[4]- وقد خرج هذا الركب من تلمسان سنة 742هـ/ 1341موعين على رأسه الشيخ أبو زكريا يحيي بن عمر رفقة فقهاء من تلمسان وملیانة وفاس وطنجة، أنظره في : المنهاج الواضح، ج1، ص322.

[5]- المناقب المرزوقية، تح : سلوى الزاهري، مطبعة النجاح الجديدة، الرباط، ط1، 2008، ص 302-301.

التراثي فقال "هذا البلد بقية قواعد الإسلام ومحل جلة من العلماء والأعلام"[1]، إضافة للعلماء الذين مروا عليها أو استقروا بها من غير البجائيين والذين انتفع بهم طلبة العلم، زانت بهم الحاضرة فكرا وانتشت بهم علما، تلك الأخبار عن بجاية كانت تنقل من الفقهاء والصوفية والأولياء والعامة الذين يمرون عليها في ركب الحج غدوة ورواحا فيصفون أهلها بالكرم واللطف ويصورون الحالة الثقافية للمدينة وكثرة العلماء بها، وهي الروايات والأخبار التي ملأت الأفاق فشغف من لم يرها بزيارتها والاستئناس بأهلها وعلمائها، فانتقل الطلبة إليها باحثين عن العلم وملتفين في حلق الدرس حول مشيختها ينهلون من علومهم وأخلاقهم، ولعل القرن6هـ/ 12م يعد بوابة التدفق نحو المدينة لذياع صيت الشيخ أبي مدين شعيب في الأفاق وشغف المريدين للقائه والتعلم على يديه، فقد ارتحل ستة من مشيخة العلم التونسيين الأخيار كما وصفهم ابن قنفذ جملة واحدة إلى بجاية يتقدمهم الشيخ أبو علي النفطي[2]، بهدف نيل بركة الشيخ وحيازة التربية الروحية والمعرفية على يده، فأصبح المجال مفتوحا خلال القرون المتعاقبة، والجدول التالي لنا نماذج من الطلبة والشيوخ الذين حطوا الرحال ببجاية من حواضر المغرب الأوسط والأقصى وسمعوا من مشيختها:

---

[1]- الرحلة المغربية، تقديم : سعد بوفلاقة، منشورات بونة للبحوث والدراسات، الجزائر 2007، ص50

[2]- وهم على التوالي بالإضافة إلى النفطي الشيخ الدهماني وطاهر المزوغي وابن هداس ومحفوظ بن جعفر وسالم التباسي، وعند حطهم الرحال ببجاية عينوا طاهر المزوغي ليقوم على حميرهم لأنه أصغرهم، أنظر الخبر عند : ابن قنفذ : أنس الفقير، ص 143.

الطالب أو الشيخ	الأصل	شيوخه ببجاية	العلوم التي درَسَها	المصدر
ابن مرزوق الخطيب (ت781هـ/ 1379م)	تلمسان	ناصر المشدالي+ أبو إسحاق الألوسي+محمد بن عبد الله الزواوي		المناقب/ 301-302
محمد بن عمر الهواري(ت 843هـ/ 1439م)	وهران	عبد الرحمن الوغليسي+ أحمد بن إدريس البجائي	التفسير والعقائد والتصوف	كفاية المحتاج،2/ 151
عبد الرحمان بن الحسين الوغديني(ت723هـ/ 1322م)	المغرب الأقصى	ناصر الدين المشدالي	الفقه	الاحاطة3/ 547
علي بن عمران المليانى (ابن أساطير)	تلمسان			عنوان الدراية.
الشريف التلمساني	تلمسان	عبد الرحمن الوغليسي وطبقته	الفقه	البستان/ 85
محمد بن محمد المقري	تلمسان	الباهلي المسفر+ علي حسن بن حسن	الفقه والأصول	البستان/ 156.

التعليق وتحليل الجدول

يبدو حسب ابن مرزوق أن بجاية أصبحت خلال القرن 8هـ/ 14م قبلة الطلبة الشغوفين بالعلم حتى من الفقهاء، ومما شجع الانتقال إليها أنها أصبحت حاضرة علمية اجتمعت فيها ثلة من شيوخ العلم البجائيين والأندلسيين الذين أثروا

العلوم الشرعية باجتهاداتهم، والملاحظ من الجدول أن طلبة المغرب الأوسط الأكثر توافدا من حواضره وباديته نحو المدينة، بسبب القرب الجغرافي وذياع صيت الحاضرة العلمية بين أهل العلم وطلبته، كما صرح ابن مرزوق فإن تلك الأسباب كانت كافية لعودته إليها بعدما مارآه وتحقق منه في ركب الحج الذي مر بالمدينة، فقرأ على ناصر الدين المشدالي والشيخ الولي أبي إسحاق الألوسي وانتفع بهما مكررا العودة إليها والمكوث بها لملاقاة فقهائها ومشيختها والسماع منهم ومحاورتهم، علما أنه سمع من عدد كبير من فقهائها وصوفيتها وعددهم في مناقبه[1]، دخلها الفقيه أبو عبد الله المقري(759هـ/ 1358م) ولقي بها من فقهائها وسمع منهم واستفاد كمحمد بن يحي الباهلي(المسفر) وأبو علي حسن بن حسن إمام المعقولات ببجاية أنذاك[2]، استفاد بعضهم من شيوخ بجاية في طرق التدريس والمناهج كأبي الحسن أبركان الذي تأثر بطريقة شيخه عبد الرحمن الوغليسي وبقية العلماء[3]، البعض منهم رحل لبجاية وتعلم بها وطاب له المقام حتى وافته المنية كعلي بن عمران المليانى المعروف بابن أساطير الذي دخلها قادما من تلمسان، وقد أسهم هؤلاء في نقل التراث الفقهي لعلماء حواضر الغرب الإسلامي وحفظه ثم الفتوى بناءا على أقوال مشايخهم، فقد نقل عن

---

(1)- إضافة إلى المذكورين في الجدول فقد سمع من أبي عبد الله بن غريون، وأبو عبدالله المسفر وأبو محمد عبد الواحد الكاتب، وأبو عبدالله بن ميدمان، وأبو عزيز وأبو موسى بن فرقان وأبو علي بن حسين وأبو موسى عمران المشدالي، أنظرهم في : المناقب المرزوقية، ص 301-302.

(2)- ابن مريم : البستان، ص 156.

(3)-*Djamil Aissani : « Les savants tlmecéniens à Bougie », Les Rapport Béjaia-Tlemcen et la Tradition Scientifique du Maghreb,* Alger, Aglaé, 2011, p.73-75.

الحسن أبركان أقوال المتأخرين من البجائيين والتونسيين بالجواز أو المنع في نازلة فقهية عرضت للنقاش[1].

استفادت المدرسة العلمية البجائية من نظيرتها التلمسانية، وجسدتا معنى الحوار العلمي والثراء الفكري والتكامل المعرفي، فتنقل أبو محمد عبد العزيز بن مخلوف(686هـ/ 1279م) بين المدينين مدرسا وقاضيا، ناشرا المعرفة بينهما ومتحركا بين مدن المغرب الأوسط، نستنتج من تلك السيرة الذاتية التي قدمها لنا تلميذه الغبريني أن الشيخ كان غزيرا في دروسه مكثرا من تدريس الفقه وفي مقدمة الكتب المدرسة الموطأ[2]، كما درس بها الشيخ الآبلي مختصر ابن الحاجب في الفقه لطلبتها[3]، ولقنهم الفقيه أحمد بن عثمان المتوسي(ت 644هـ/ 1246م) اللغة العربية والفقه وأصول الدين والتصوف[4]، ودخلها الشريف التلمساني وقد شده الحراك العلمي

---

[1]- سأل علي بن محمد التالوتي (ت895هـ/ 1489) عن جواز وضع الكتب على الأرض؟ فقال الشيخ الحسن أبركان فيها خلاف بين البجائيين والتونسيين، أنظر : البستان، ص 139-140، وذكرها كذلك الملالي في : المواهب القدسية في المناقب السنوسية، تح : علال بوربيق، دار كردادة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2011، ص59.

[2]- وقد أشاد الغبريني بشيخه كثيرا إضافة إلى الشيخ أبومحمد عبد الله بن عبادة وقال "...ومازلت أحضر مجلسهما للإستفادة والنفع، وسمعت من المقروءات عليهما أضعاف ما قرأته..."، أنظر : مشيخة الغبريني، ص356.

[3]- بطلب من السلطان المريني أبو عنان، يراجع : الرصاع :فهرست الرصاع، تح : محمد العنابي، المكتبة العتيقة، تونس، 1967، ص 88. وفي دوره ببجاية وملاقاة طلبة ناصر الدين المشدالي ومسألة معنى فخر الدين الرازي بشأن تفسير سورة الفاتحة أنظر ما « *L'école des sciences rationnelles de TLmecen»,P 86. Djamil Aissani,*

[4]- شجرة النور، ج1، ص202.

بالمدينة وانبهر فقال "وجدت العلم ينبع من صدور رجالها كالماء ينبع من حيطانها"[1]، دلالة على انتشار العلم وكثرة أهله، واستقضي بعضهم شأن سعيد العقباني[2].نتج عن ذلك الحراك الثقافي سواد روح الاجتهاد العلمي بين الحاضرتين، نلمسه من خلال الفتاوى التي عرضت على فقهاء المدينتين فأكسبتها لباس المجتهد، تبادلتا الأسئلة في نوازل فقهية متعددة مما يبين السعي للبحث عن الحقيقة وانتشار روح العلم والانتصار للمعرفة والابتعاد عن الذاتية[3].

أما من المغرب الأقصى فقد حط ببجاية جمع لا بأس به من طلبة العلم والفقهاء على حد سواء، برز بعضهم في تدريس علم التصوف على شاكلة أبو عبد الله السجلماسي[4] الذي يصل إسناد الغبريني له كما جاء في مشيخته، مما يبن صحة العلم ببجاية خلال تلك الفترة، أغلب من دخلها من حواضر المغرب الأقصى أسمعوا الفقه، كأبي العباس أحمد بن عمر الدكالي(ق7هـ/ 13م) الذي انتصب لتدريسه بمساجدها[5]، وأشاد الغبريني بدروس الشيخ أبو سعيد بن تونارت الدكالي فقال عنه

---

[1]- حفيظة بلميهوب : الفقه المالكي في مدرسة بجاية، ص52

[2]- فهرست الرصاع، ص115.

[3]- لدينا نماذج كثيرة يمكننا الاستدلال بها عن ذلك التنافس العلمي، فقد أجاب الشريف التلمساني البجائيين في مسألة أصول الدين، وسأل أبو العباس أحمد البجائي الشريف لأمه الفقيه أحمد بن عبدالله المناوي في مسألة جواز الرحيل من بجاية بعد تدهور أحوالها الأمنية، أنظرها في : البستان، ص14-15، 120.

[4]- ذكره الغبريني في مشيخته درس عليه علم التصوف، له سند يمتد إلى أبي مدين شعيب، ص309.

[5]- المنهاج الواضح، ج1، ص331.

"جيد الإلقاء، مليح التفهيم حسن الإبتداء والتتميم"[1]، ووصلها من فاس الفقيه عبد الرحيم بن عمر اليزناسني فتصدر للتدريس حتى اشتهر ببجاية وعرف عنه رسوخه في مذهب مالك وأصول الفقه، عده الغبريني من أهل الإجتهاد، وقد حلى للبعض المقام بالحاضرة الحفصية كعبد الرحمن بن الحسين الوغديني (ت723هـ/ 1322م) درس على شيخها ناصر الدين المشدالي وانتفع أيما انتفاع[2]، تأثر بعض الطلبة بمؤلفات البجائيين وكتبوا عليها شروحا ،شأن أحمد بن عيسى البرنسي الشهير بزروق(ت899هـ/ 1493م) الذي قرأ على المشدالي فتأثر بالوغليسية في الفقه وكتب عليها شرحا مطولا[3].

ورغم ذياع صيت المدرسة الأندلسية وباعها في إنتاج ونقل المعرفة إلا أنني وجدت نماذج كثيرة من الطلبة الأندلسيين دخلو المدينة باحثين عن المشيخة البجائية المتضلعة كناصر الدين المشدالي وأحمد ابن إدريس البجائي وأمثاله[4]، والجدول التالي

---

[1]- عنوان الدراية، ص359.

[2]- الإحاطة، ج3، ص347.

[3]- لعبد الرحمن الوغليسي وشرحت عدة شروح منها : شرح محمد بن يوسف السنوسني (ت895هـ/ 1489م) إلا أنه لم يكمله، وشرح عبد الكريم الزواوي، وشرح عبد الرحمن الصباغ، وشرح زروق البرنسي(ت899هـ/ 1493م)، للتفصيل في كل ذلك ينظر : محفوظ بوكراع وعمار بسطة : شرح العلامة زروق على المقدمة الوغليسية، دار ابن حزم، الشركة الجزائرية اللبنانية.

[4]- لكن المعروف أن بجاية هي التي استفادت من النخبة الأندلسية العالمة المهاجرة إليها، بعد الأوضاع السياسية التي آلت إليها بلادهم وسقوط المدن الأندلسية تترى، ساعدهم وقوع بجاية في طريق رحلاتهم نحو بلاد المشرق مرورا بتونس، فيهم من أكمل المسيرة وفيهم من طاب له المقام فاستقر.

يبين للطلبة المهاجرين من المدن الاندلسية المختلفة وطبيعة استفادتهم من علماء بجاية:

الطالب الأندلسي	أصله (المدينة)	مشيخته ببجاية	العلوم التي درسها	المصدر
محمد بن عبد الله فطيس (قُتل 702 هـ/ 1302م)	مالقة	ناصر الدين المشدالي+ محمد بن صالح الكناني (إجازة)	الفقه	شجرة النور/ 451-474،452 .
محمد بن أحمد بن شبرين (المكنى أبا بكر)	إشبيلية	ناصر الدين المشدالي+ أبو العباس الغبريني		الإحاطة، 2/ 242.
محمد بن أحمد بن ابراهيم بن الزبير(ت765هـ/ 1363م)	غرناطة	ناصر الدين المشدالي+ محمد بن صالح الكناني	الفقه والأصول	الإحاطة، 3/ 157.
محمدبن جابر بن حسان القيسي القيسي(ت 740هـ/ 1339م)	وادي آش	أبو العباس الغبريني		الإحاطة، 3/ 163.
محمد بن يوسف الصريحي	أندلسي	ناصر الدين المشدالي	أصول الفقه	الإحاطة، 2/ 303.
أبو البركات بن الحاج البلفيقي	بلفيق (ألمرية)	ناصر الدين المشدالي	الفقه	المرقبة العليا/ 164-

				167
الرحالة خالد البلوي (ت بعد 771هـ/ 1369م)		أبو الحسن علي (المنتصر)		تاج المفرق، 1/ 154-155.
محمد بن القاسم بن أحمد الأنصاري (728هـ)	ألمرية	ناصر الدين المشدالي	درس الفقه عليه، عيّن خطيبا بالجامع الأعظم	درة الحجال/ 74.
محمد بن أحمد بن علي الهواري (ت 780 هـ/ 1378م)	الأندلس	أبو عبد الله الزواوي		

التعليق والتحليل :

ما استنتجته من الجدول أن أغلب الأندلسيين الذين حطوا الرحال ببجاية تتلمذوا على كبار الفقهاء كناصر المشدالي وأبي العباس الغبريني ومحمد بن صالح الكناني[1]، وقد حرصوا على طلب إجازاتهم مما ينمّ عن مقدرة تلك المشيخة وتضلعها في فنون عديدة، ومن المعلوم أن المدرسة الفقهية البجائية تفوقت في إنتاج المعرفة الفقهية من خلال رصدي لتآليفها الفقهية وشروحاتها على كتب المذهب المالكي وتخصصها في تدريسه كالموطأ ورسالة أبي زيد القيرواني، ولعل ذلك سبب رئيس في إقبال الطلبة الأندلسيين عليها، ورغم التفوق العلمي الذي أبداه العنصر الأندلسي إلا

[1]- رغم أنه أندلسي إلا أنه استقر ببجاية وتوفي بها، وكان إماما وخطيبا للمسجد الأعظم ببجاية أكثر من ثلاثين سنة، أنظره في : عنوان الدراية، ص 79.

أنهم جلسوا لحضور مجالس العلم وحِلَقِه ببجاية، فقد صرّح النباهي في ترجمته للشيخ محمد بن القاسم الأنصاري (ت 728هـ/ 1327م)أنه قصد بجاية للدراسة على علمائها فتتلمذ على شيخها ناصر الدين المشدالي، ولما توسم فيه البجائيون الخير والديانة والعلم والمقدرة العلمية قدّموه إماما وخطيبا بالجامع الأعظم فلقي الإجماع والقبول من أهلها[1]، شأن القاضي أبي البركات البلفيقي الذي دخلها وتتلمذ على مشيختها كما جاء في نص ابن الخطيب "أخذ الحديث عن أهله في خزنه وسهله"[2]، فحضر المجالس العلمية للشيخ ناصر الدين المشدالي الذي كان في سن متقدمة، وجلس الرحالة خالد البلوي عند مروره بالمدينة لسماع دروس الشيخ أبي الحسن علي المعروف بالمنتصر[3]، ولم تكن العاهات الجسمية عائقا أمام بعض الطلبة للارتحال في سبيل المعرفة، فقد دخل محمد بن أحمد بن جابر الهواري (ت 780هـ/ 1368م) الذي كان ضريرا بجاية قادما من الأندلس، وسمع دروس الفقه من الشيخ أبي عبد الله الزواوي[4] مما ينمّ عن تجشم الصعاب لأجل التفقه والتعلم.

الإجازة العلمية ثمرة الرحلة :

لغة مصدرها فعل أجاز وتعني الإباحة والجواز والتسويغ، ويقال أجاز الشيء إذا أنفذه، وتعني العطاء أو العطية[5]، أما اصطلاحا فيعرّفها علماء الحديث بأنها

---

[1]- درة الحجال، ص 74.

[2]- الإحاطة، ج2، ص143.

[3]- تاج المفرق في تحلية علماء المشرق، تح : الحسن السائح، المحمدية، دت، ج1، ص154-155.

[4]- درة الحجال، ص242.

[5]- الموسوعة الفقهية، ج1، ص310.

"تسويغ في السماع والرواية لفظا وكتابة"[1]،فالمحدّثون يعطون الحق لسامع الحديث وراويه وحافظه حق روايته بشروط[2]، أما مفهومها العام فيقصد بها تلك الشهادة التي يمنحها الشيخ أو الأستاذ أو المدرّس المجيز[3] إلى الطالب المستجيز، تسمح له برواية ما قرأه عنه وتفقّه عليه بعد سنوات من التحصيل والاجتهاد، فهي ضمنيا تتضمن الترخيص في تدريس المادة العلمية المستوعبة عن الشيخ وتعطيه أهلية للفتوى والتدريس، وهي على ثلاثة أشكال، إما إجازة مكتوبة أي تحريرية بخط وتعبير الشيخ المجيز، كإجازة الفقيه محمد بن عبد الحق اليعفري (ت 625 هـ/ 1227م) ، الفقيهين البجائيين عبد الله الخشني وأبي زكريا يحي بن علي الذين وصلا إلى مرتبة الإفتاء ببجاية وقد منحه إجازة عامة بشروطها كما جاء في نصها "أجبت لكم أكرمكم الله جميع ما سألتموه وأبحت لكم من ذلك ما طلبتموه إجازة عامة على شروطها المعمول بها عند القائلين إذ أنتم أهل لذلك..."[4]، وإجازة بالمشافهة ثم تتبعها التحريرية، والإجازة بالمشافهة نادرة الحدوث لأنها غالبا ما تسبق التحريرية[5]، توثق فيها بعض المعلومات

---

[1]- نقلا عن : سعودي أحمد : "الإجازة العلمية مظهر من مظاهر التواصل العلمي بين المشرق والمغرب"، مجلة الحكمة للدراسات الإسلامية، 22، 2013، ص 159.

[2]- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

[3]- يعرف المجيز أنه من يملك حق التصرف أصيلا كان أم وكيلا، وليا أو وصيا، أنظر" الموسوعة الفقهية، ج1، ص 303.

[4]- أنظرها في : عنوان الدراية، ص220-221.

[5]- عن هذه الأنواع وبالتفصيل أنظر : سعودي أحمد : الإجازة العلمية، ص 159.

مثل أسباب منحه هذه الإجازة ونوعها وشروطها[1]، وهي بمثابة اعتراف بالمشيخة لطالب العلم بالتمكن في علم أو علوم شتى، وبقدر ما كانت من فقهاء كثر كلما عبّرت عن مدى القدرة العلمية للطالب وتمكنه واستيعابه للمعرفة العلمية، فالغبريني يذكر المشيخة التي استجازته في علم الفقه كما يقول "تعلما وتفقها وتبسطا بالقراءة على الفقيهين : أبي محمد بن عبد العزيز القيسي ومحمد بن عبد الله بن عبادة"[2]، وقد حرص الطلبة البجائيون على السؤال عنها وطلبها من أساتذتهم، فاستجاب مشيختهم للطلبة المجيدين الذين تتوفر فيهم الأهلية، كما هبّ الطلبة والفقهاء إلى طلب إجازات المشيخة البجائية لقيمتهم العلمية وتبرزهم في فنون المعرفة الشرعية، فقد أجاز الإمام ناصر الدين المشدالي والشيخ محمد بن صالح الكناني لمحمد بن ابراهيم بن الزبير (ت 765هـ/ 1363م) من طلبة غرناطة[3]، وأجاز قاضي الجماعة ببجاية أبو العباس الغبريني للفقيه محمد بن جابر القيسي الواد آشي(ت 740هـ/ 1339م)[3]، كما اعترفت المشيخة الأندلسية لمنصور بن علي الزواوي بالتحصيل والفهم فكتب له شيخه أبو عبدالله بن الفخار إجازة وإذن له بالتدريس في حلقته بالمدرسة النصرية[4].

---

[1]- غالبا ما تتضمن البسملة والحمدلة والتشهد والصلاة على النبي وتمهيد لفضل العلم والعلماء، ثم مكانة الشيخ المجيز ثم الغرض من طلب الإجازة، للتوسع يراجع : سعودي أحمد : "الإجازة العلمية"، ص159.

[2]- عنوان الدراية، 355.

[3]- من أصول أندلسية لكنه استقر بتونس يكنى بأبي عبدالله ويعرف بابن جابر، أنظره في : الإحاطة، ج3، ص163.

[4]- الإحاطة، ج3، ص326.

من ثمار الإجازة توثيق الصلات العلمية وتنشيط الرحلة العلمية بين بجاية ومختلف حواضر العلم في العصر الوسيط، كما أنها أسهمت بشكل جليّ في نقل العلوم والمعارف بينها، فقد حرص الفقهاء في نشر العلوم التي استجيزو فيها في البلدان التي حطوا بها واستقروا بها نهائيا، ذهبت إحدىٰ الباحثات إلىٰ تأكيد تلك الروابط خاصة مع العنصر الأندلسي الذي أجاز شيوخه الكثير من طلبة المغرب الأوسط[1]، وانتشار مصنفاتهم في الحواضر والتي قُرّرت في الدرس وحِلَق العلم، شأن مختصر ابن الحاجب الذي أدخله ناصر الدين المشدالي إلىٰ بجاية ثم نقله تلامذته إلىٰ تلمسان وإفريقية وفاس وغيرها، وانتفع به الطلبة وعكفوا علىٰ دراسته وتدريسه، وكتبت شروحا علىٰ كتبهم ومختصراتهم كالوغليسية في الفقه.

النتائج :

الرحلة العلمية للنخب البجائية وتواصلها مع حواضر الغرب الإسلامي أكسبها قدرات علمية وتربوية أهلتهم للتواصل مع غيرهم، وتبادل الأفكار والمفاهيم ومناقشتها، إضافة إلىٰ ربطهم لعلاقات مع العلماء والأخذ عنهم، فكسبوا طرق المجادلة والحوار باستخدام الحجاج العقلي والبرهنة بالنص التراثي، أسهموا بعد عودتهم في تطوير المفاهيم المعرفية وتحسين مستوىٰ الأداء التربوي والعلمي وبلورة مظاهر الحراك الاجتماعي.، من خلال تلك الصورة النمطية التي رسمها لهم المجتمع

[1]- حناشي فهيمة : العلاقات بين الغرب والأندلس خلال القرنين (5-6هـ/ 11-12م) –دراسة إجتماعية وثقافية– رسالة ماجستير، جامعة الأمير عبد القادر، قسنطينة، 2011-2012، ص 14.

مع الأدوار الفعالة التي أنيطت بهم[1]، كما أنها فتحت ذراعيها أمام الطلبة والفقهاء الذين استقروا بها، باحثين عن المعرفة، منهم الأندلسيون الذين أقبلوا على دروس أبي العباس الغبريني وناصر الدين المشدالي وأحمد بن إدريس البجائي، وفي المقابل أسهم الفقهاء الأندلسيون في إحداث نهضة تعليمية بفضل الطرائق التعليمية الجديدة التي استقدموها لبجاية التي تقوم على المحاورة والسؤال وترفض التلقين والحفظ دون فهم وتدبر، مما أضفى عل الدرس حراكا علميا وجدالا أثّر بشكل إيجابي في النهضة التربوية والفكرية بالمدينة، مما ينم عن قوة العلائق الثقافية بين حواضر الغرب الإسلامي

أما الإجازة العلمية فإنها بيّنت المستوى التعليمي والتربوي للطلبة البجائيين، الذين جابوا الحواضر العلمية بحثا عن المعرفة العلمية، كما أنها أسهمت في إبراز الحضور المتميز للمدرسة العلمية البجائية في إنتاج ونقل المعرفة عبر عالم الإسلام الوسيط، وتواصلها معه وربط علاقات علمية ومعرفية متينة، فقد أدخل الفقهاء البجائيون علوم أساتذتهم ومعارف مشيختهم واستثمروها في حقول المعرفة في الفضاء البجائي الحفصي، يبدو ذلك جليا من خلال الإسناد في علوم شتى وصلت أثارها إلى النخب العالمة البجائية مما ينم عن صحة الرواية في علم الحديث وعلوم

---

[1] وهو الدور الذي لعبته السلطة الدينية ببجاية، اعتبره البعض دورا متناغما مع متطلبات المجتمع البجائي في تلك الفترة فأكسبهم الإعتراف الإجتماعي، ينظر في ذلك : *Mohamed Salah Baizig: "Individu ordinaire et pouvoir religieux à Bijaya à l'époque medieval : typologie des comportements", Publier dans "Individu et pouvoir dans les pays islamo- méditerranéens" sous la direction de Mohamed –Hédi Cherif et Abdelhamid Hénia, Maisonnneuve et Larose.Paris.2005,p 229*

أخرىٰ[1]، كما أن الإجازات التي منحتها المشيخة البجائية للطلبة الغرباء وهي كثيرة خاصة خلال القرنين 7و 8 هـ / 13 و 14م، جعلتهم ينقلون علوم ومعارف البجائيين إلىٰ بلدانهم، وأبرزت المستوىٰ المعرفي للحاضرة الحفصية من خلال الكتب المدرسة عبر حلقات العلم، ومدىٰ القدرة علىٰ الاجتهاد والإنتاج، ومقياسا لمعرفة المستوىٰ الفكري بالمقارنة مع الحواضر العلمية الأخرىٰ، وأهم نتيجة أن هذه الرحلات العلمية المتبادلة ومن ورائها الإجازات عبّرت عن قدرة المدرسة البجائية في العصر الوسيط علىٰ تنشيط العلوم والمعارف وتبادلها عبر دار الإسلام، فوثقت العلاقات مع بلدانه وحواضره وقضت علىٰ الحواجز بقوة التنقل عبر فضاءه الجغرافي الواسع، ولم تقف الصراعات السياسية في وجه التنقلات والرحلات العلمية، بل مهّدت السلط القائمة كل السبل والتسهيلات لطلبة العلم ورحّبت بهم فأسهمت في تجسيد حقيقي لمفهوم الرحلة العلمية وحققت غاياتها بين حواضره وأذابت مفهوم القطرية الضيق، فكانت إحدىٰ حلقات التواصل الثقافي بين علماء الغرب الإسلامي.

---

[1] تجسدت بشكل جلي في برنامج مشيخة أبي العباس الغبريني، الذي يأتي بالسند في العلوم التي قرأها أو سمعها، أو رويت له، سواءا علوم الرواية أو الدراية، فمثلا يبدأ لإسناده في صحيح البخاري من شيخه أبو عبد الله بن صالح الكناني إلىٰ أبي الحسن ابن قطرال وعبر ستة شيوخ أخرين ليصل إلىٰ الإمام البخاري وكذلك في علوم أخرىٰ، أنظر بالتفصيل : مشيختة : ص 355-401..